

الشبهة الثالثة عشرة

السنة ليست وحيا ؟!

فى هذه الشبهة يحاول منكرو السنة الخط من شأنها ، وتجريدها من خصائصها الدينية ، فهى عندهم مجرد كلام للنبي ﷺ ، وأن كلامه ليس فيه إلزام للأمة .

ويطعنون فى الحديث الشريف : «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» ويعتمدون فى طعنهم فيه على حديث النهى عن كتابة أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، ويقولون لو كانت السنة من عند الله لما نهى عن كتابتها النبي ، بل كان المتعين الأمر بكتابتها مثل القرآن تماما .

ويقول بعضهم : لو كانت السنة وحيا من عند الله ما أهمل النبي تدوينها وكتابتها ، إلي أن يأتى البخارى ومسلم فى القرن الثالث فيقوموا بمهمة كان ينبغي أن يدعو إليها النبي نفسه فى حياته .

كما يحرفون معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

يحرفون معناه ؛ لأن أنصار السنة يستدلون به على أن السنة التى صح صدورها عن النبي ﷺ من عند الله . واليك ما قالوه فى هذا الشأن :

قال بعضهم : إن ما كان يقوم به النبي ﷺ ، هو وحى كله ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ والاستناد إلى هذه الآية الكريمة لا مسوغ له هنا ، فالضمير «هو» لا يعود إلى النبي ﷺ ، وإنما يعود بوضوح - وحصر - إلى الكتاب المنزل . [الكتاب والقرآن : ٥٤٥ د / محمد شحرور .

هذه خلاصة وجيزة لما قالوه حول تفريغ السنة من محتواها الدينى ، باعتبارها شطر الرسالة الثانى بعد القرآن ، وتراهم فى سبيل الوصول إلى هذه الآية

ينتحلون الأسباب الواهية ويتجرأون على إهدار قيمة النصوص ، التى تقف فى طريقهم على النحو الذى رأيت .

تفنيذ هذه الشبهة ونقضها :

السنة التى استوفت شروط الصحة سنداً ومتناً لا ريب أنها كلام نطق به النبى ﷺ ، وأنه من مقومات الرسالة ، ومتصل بمهمة التبليغ ، التى من أجلها أرسل الله محمداً ﷺ ، ليقيم على الناس الحجة ، وتتم عملية التكليف .

وما كان هذا شأنه فهو صادق كل الصدق ، والناس ملزمون به مثل إلزامهم بالقرآن سواء بسواء ، إذ لا فرق بين أمر أو نهى طريقه القرآن ، وأمر ونهى طريقه السنة النبوية .

وهذا ما يفيدته الحديث المشهور : «الأ وإنى أوتيت القرآن ومثله معه» .
فالمثلية بين القرآن ، وبين ما أوتيته الرسول ﷺ ليست مثلية (الكم) -
أعنى العدد - وإنما هى مثلية (الكيف) .

ليست مثلية العدد فيكون عدد الأحاديث النبوية مثل عدد آيات القرآن ، أو جُمِلَ الأحاديث مساوية لـ (جُمِلَ) القرآن ، ولا ينبغى أن يخطر هذا المعنى على بال أحد .

وإنما هى مثلية (الكيف) ويمكن توضيحها فى الآتى :

- مثلية «الحقية» فالقرآن حق لا باطل فيه ، والسنة حق لا باطل فيها .
 - مثلية الطاعة والامتثال ، فتجب طاعة الرسول فى ما أمر به أو نهى عنه .
- وبعد هذا ليس مهماً عندنا أن يكون طريق السنة هو الوحي الحرفى ، أو الوحي المعنوى ، أو يكون طريقها الإلهام ، أو يكون طريقها الاجتهاد كما ذهب إلى هذا بعض العلماء ، وبالغ فيه منكره السنة .

يكفيننا أن السنة التى صح صدورها عن النبى ﷺ : كلام خرج من فمه الطاهر ، أو فعل كان هو فاعله ، أو تقرير لفعل صدر من غيره فلم ينهه عنه وكان المراد بكل ذلك التبليغ عن الله عز وجل .

أقول يكفيننا هذا ، ولا نتطلب شيئاً آخر بعده ، لأن به تقوم الحجة ، ويتضح المراد .

تحريف معنى الآية :

رأينا كيف حرّف منكرو السنة معنى آية «النجم» وجزموا بأن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ وصف للقرآن وحده ، ولا تدخل السنة في هذا الوحي بحال ، ويقدم في هذا الجزم سياق الآيات :
﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ .

منكرو السنة فرّقوا بين الضمير المستتر في «ينطق» وهو فاعل النطق فجعلوه للنبي أو أبقوه على دلالة الظاهرة - وهذا حق لا نزاع فيه - وبين الضمير الظاهر المنفصل في ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ فجعلوا الضمير (هو) عائداً على القرآن وحده .

وهذا تعسف محض ؛ لأن القرآن لم يرد له ذكر هنا حتى يعود عليه الضمير ؛ ولأن لهذا الضمير مرجعاً في الآية قبله ، وهو «النطق» المفهوم من الفعل المضارع «ينطق» أي : وما نطقه ﷺ إلا وحي يوحى . سواء في ذلك القرآن والسنة . ولأن المقام مقام ثناء وتزكية لرسول الله ﷺ . من طهارة قلب ، وصدق لسان .

وقد أكد الحق عز وجل هذا الثناء بالتوكيد القسمي ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ .

ثم نزه الله رسوله بعد ذلك فنفي عنه الضلال والغواية ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ .

ثم نفى تأثير أهواء النفس في قوله وحديثه (نطقه) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ . ثم حصر نطقه في كونه وحياً .

فمن أين فهم هؤلاء المرجفون أن الضمير في ﴿إِنْ هُوَ﴾ عائداً على القرآن وحده؟

إن محمداً - ﷺ - كان ينطق بالسنة كما ينطق بالقرآن ، فكان حرياً بهم - لو كانوا منصفين - أن يقولوا إن الضمير في ﴿إِنْ هُوَ﴾ شامل لما نطق به النبي كله ، سواء كان نطقه قرآناً ، أو سنة مراداً بها التبليغ عن الله عز وجل ، ولما كان محمد ﷺ ينطق بالقرآن وبالسنة وقد سميت هذه السنة وحياً كما تقدم ، فرق كثير من العلماء بين وحى القرآن ووحى السنة :

● فوحى القرآن ما كان باللفظ والمعنى ، ولا تجوز بحال روايته بالمعنى فحسب .

ووحى السنة ما كان بالمعنى ، واللفظ من عند النبي ﷺ ، ويجوز روايتها عنه - عليه الصلاة والسلام - بالمعنى عند الضرورة . نطقاً لا كتابة .

● أو أن القرآن وحى جلي ، والسنة وحى خفي وكون السنة من عند الله ، بأى كيفية أعلم الله بها رسوله ، هذا المعنى يؤيده القرآن الحكيم مرة أخرى فى قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] .

فهل - بعد هذا - يكون لشبهة منكرى السنة هذه رواج أو قبول ، عند ذوى العقول .

ولا يقدح فى كون السنة وحى معنى لا وحى ألفاظ ، أن بعض الأحاديث تختلف رواياتها بوضع لفظ مكان آخر أو بالزيادة والنقص ، أو بالتقديم والتأخير . لأن هذه «الاختلافات» إن كانت بسبب اختلاف السماع عن رسول الله ، فإن كل راو يروى ما سمع كما سمع من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فمرة نطق بهذا ، ومرة نطق بذاك حتى وإن ترتب على ذلك اختلاف المعنى .

وما أشبه هذا فى السنة الصحيحة باختلاف القراءات فى القرآن ، والقراءات الصحيحة كلها قرآن . ولا تقدح هذه القراءات فى مصدريّة القرآن ، وهو الوحى المتعبد بتلاوته .

* * *